مقدمة

بقلم: حضرة مولانا جلال الدين شمس - رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم
وعلى عبده المسيح الموعود
بفضل الله ورحمته – هو الناصر

لم يتلقَّ سيدنا ميرزا غلام أحمد القادياني الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام علومَ الدين أو الأدب العربي في أي معهد عالٍ أو كُتّاب معروف أو لدي عالم شهير، وإنما درس بعض الكتب العربية على يد معلّمين عاديين غير مميَّزين. ولقد بيّن عليه السلام في أحد كُتبه كيفيةَ تعليمه حيث قال إنه لما بلغ السادسة من عمره اختار له والدُه المحترم معلِّمًا اسمه "فضل إلهي"، فعلّمه قراءة القرآن الكريم وبعض الكتب الفارسية. وفي حدود العاشرة من عمره تتلمذ على معلِّم آخر اسمه المولوي "فضل أحمد"، فدرس عنده كتبًا أخرى وقسطًا ضئيلاً من قواعد النحو. وحينما بلغ عليه السلام السابعة عشرة استدعى له والدُه إلى قاديان شيخًا آخر هو المولوي "سيد گُـــل علي شاه البطالوي"، فدرس منه بعضًا من كتب النحو والمنطق والطب وغيرها من العلوم المتداولة

آنذاك. مكث المولوي سيد گُـــل علي شاه في قاديان فترة من الزمن، ثم رجع إلى مدينته "بطالة" لبعض الأسباب. فاضطرّ حضرته عليه السلام أن يمكث مع أستاذه في "بطالة" فترة من الزمن أصبح خلالها المولوي محمد حسين البطالوي زميلا له في الدراسة.[∂] وقد أشار الأخير إلى ذلك في مجلته "إشاعة السنة" حيث قال:

"لا يوجد بين معاصرينا أحد هو أعلم منا بأحوال وأفكارِ مؤلِّفِ "البراهين الأحمدية". فوطننا واحد، بل كنا زميلَين في الدراسة منذ مقتبل العمر حين كنا ندرس معًا "القطبي" و"شرح الملا". ومنذ ذلك الحين لا تزال المراسلات واللقاءات مستمرّة بيننا إلى اليوم دون انقطاع."[•]

ويبدو أن سيدنا أحمد عليه السلام أيضًا أشار إلى الفترة ذاتها حين خاطبَ الشيخَ البطالوي قائلاً:

قطَعتَ وَدادًا قد غرَسناه في الصبا وليس فؤادي في الوداد يقصِّرُ [÷]

في تلك الحقبة من الزمن كانت مدينه "دلهي" تُعتبر أكبرَ مركز للعلوم الشرقية بالهند، حيث كان يقيم بها كبار العلماء المشاهير بمن فيهم الشيخ المولوي نذير حسين الدهلوي المعروف بـــ "شيخ الكل" والذي كان المولوي محمد حسين البطالوي يتباهى بكونه تلميذًا له. ولكن سيدنا أحمد عليه السلام لم يتلقَّ أيَّ تعليم من أيِّ معهد أو شيخ من

[∂] انظر كتاب البرية، الخزائن الروحانية مجلد ١٣ ص ١٧٩-١٨١ الهامش

[•] إشاعة السنة مجلد ٧ ص ١٦٩

[÷] البراهين الأحمدية.. الجزء الخامس، الخزائن الروحانية مجلد ٢١ ص ٣٣٥

هؤلاء، اللهم إلا النـــزر اليسير الذي تعلّمه على يد المعلّمين الثلاثة المذكورين سابقًا، أو ما درسه على يد والده المحترم من كُتب الطب. ولذلك ما كان لأحد أن يتصور أن حضرته قادر على تأليف كتاب أو إعداد مقال باللغة العربية، ناهيك عن كتابة مصنّفات ضخمة تفيض بالمعارف والحقائق بلسان عربي مبين، الأمر الذي حدا بالشيخ محمد حسين البطالوي وأمثاله ليُشيعوا بين الناس ادّعاءهم ضد سيدنا أحمد عليه السلام أنه جاهل بعلوم اللغة العربية.

والحق أنه لم يكن بإمكانه عليه السلام – بالنظر إلى علمه الذي اكتسبه – أن يكتب مقالاً أو يعدّ كتيبًا أو يصنف كتابًا بلغة عربية فصيحة، ولكن ثقافته العربية كانت هبة إلهية أُعطيَها كمعجزة جعلته قادرًا على تأليف ما يربو على عشرين كتابًا ومقالاً بلسان عربي مبين، متحديًا بذلك المشائخَ المعارضين أن يأتوا بمثل ما أتى به فيأخذوا منه الجوائز بعشرات الآلاف، ولكن ما كان لأحد منهم أن يجرؤ على قبول هذا التحدي.

هبة إلهية محضة

ولقد أكّد سيدنا أحمد عليه السلام بنفسه أنّ معرفته بالعربية هبة إلهية محضة، فقال ما نصُّه:

"إن كمالي في اللسان العربي، مع قلة جهدي وقصور طلبي، آيةٌ واضحة من ربي، ليُظهر على الناس علمي وأدبي. فهل مِن مُعارض في

جموع المخالفين؟ وإني مع ذلك عُلِّمتُ أربعين ألفًا من اللغات العربية، وأُعطيتُ بسطةً كاملة في العلوم الأدبية." ∂

وصرح في مكان آخر بما تعريبه:

"لقد أُعطيتُ آيةَ الفصاحة والبلاغة بالعربية كظلٍّ لمعجزة القرآن الكريم. فلا أحدَ يستطيع أن يبارزني في هذا المضمار." ❶

ثم تحدث سيدنا أحمد عليه السلام عن التأييد الإلهي الذي تلقاه أثناء الكتابة فقال ما تعريبه:

"وجدير بالذكر هنا أنني ألاحظ أن التأييد الإلهي الإعجازي يحالفني أثناءَ التأليف والكتابة بشكل خاص، حيث أشعر لدى كتابة شيء بالعربية أو الأُردية كأن أحدًا من داخلي يعلّمني. وإن كتاباتي كلها، سواء العربية منها أو الأردية أو الفارسية، تتم كتابتها بطريقين اثنين: الأول: أن سلسلة من الألفاظ والمعاني تتراءى لي على التوالي بمنتهى السهولة فأكتبها. وبالرغم من أنني لا أتجشم أي مشقة وعناء في مثل هذه الكتابة، إلا أن تلك الكلمات والمفاهيم في واقع الأمر لا تفوق قوتي العقلية كثيرًا؛ بمعنى أنه ولو لم يرافقني التأييد الإلهي بشكل خاص فإنني أستطيع بفضل الله تعالى أن أكتبها ببذل شيءٍ من الجهد وكثيرٍ من الوقت، وذلك ببركة التأييد الإلهي العادي العام الذي هو جزء لا يتجزأ من خواص الفطرة الإنسانية، والله أعلم.

∂ أنجام آتهم، الخزائن الروحانية مجلد ١١ ص ٢٣٤

❶ ضرورة الإمام، الخزائن الروحانية مجلد ١٣ ص٤٩٦

والقسم الثاني من كتاباتي يتم بطريق خارق للعادة كليةً. وذلك أنني حين أكتب شيئًا بالعربية مثلاً وأحتاج إلى بعض الكلمات التي يتطلبها السياق ولا أعرفها.. فإن الوحي الإلهي يهديني إليها، حيث يُلقي روحُ القدس تلك الكلمةَ في قلبي على شكل وحي متلوٍّ، ويُجريها على لساني وأنا في حالة غيبوبة. وعلى سبيل المثال، احتجتُ أثناء الكتابة بالعربية إلى ما يعني "كثرة العيال" ولم أعرف تلك الكلمة، وكان السياق يتطلبها، فأُلقيَ في قلبي فورًا لفظُ "الضَفَف" على صورة وحي متلوٍّ. كذلك احتجتُ أثناء الكتابة مثلاً إلى ما يؤدّي معنى "لزوم الصمت غمًّا وغضبًا" ولم أعرف الكلمة العربية، فتلقَّى قلبي وحيًا يقول: "الوجوم". ونفس الحال بالنسبة للجُمل العربية، فأثناء الكتابة بالعربية تَرِدُ على قلبي مئاتُ الجُمل على شكل وحي متلوٍّ، أو يُرينيها مَلاكٌ مكتوبةً على ورقة؛ وتكون بعض تلك الجمل آياتٍ من القرآن الكريم، وبعضها شبهَ آيات مع شيء من التصرف. وفي بعض الأحيان أعرف فيما بعد أن الجملة الفلانية التي كانت قد أُلقيت علي من عند الله تعالى كوحي متلوٍّ توجد أيضًا في كتاب كذا. وبما أن الله تعالى هو مالكُ كل شيء فله الخيار كله أن يُنـــزل على قلبي على سبيل الوحي جملةً رائعةً أو شعرًا جميلاً سبق أن ورد أيضًا في أحد الكتب أو الدواوين."[ϑ]

[ϑ] نزول المسيح، الخزائن الروحانية مجلد ١٨ ص ٤٣٤- ٤٣٥

وهذا يؤكّد أن ما ألّفه سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام باللغة العربية الفصيحة البليغة إنما ألّفه بتأييد إلهي، وليس بناءً على علم مكتسَب. ومن أجل ذلك نجد العلماء المعارضين يتحاشَون – من جهة – نزالَه حين تحدّاهم أن يأتوا بمثل ما أتى به من كتب ومقالات، ومن جهة أخرى راحوا يثيرون ضد كُتبه الاعتراضات السخيفة....

ولنعم ما ردّ به سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام على مثل هذه المزاعم حيث قال ما تعريبه:

"لقد طعَن بعض الجهال حتى في القرآن الكريم معتمدين على قواعد نحوهم الزائف، ولكن كل هذه المطاعن سخيفة للغاية. والحق أن لا أحد سوى الله تعالى يملك علمَ اللغة الواسعَ. وإن اللغة كما تتغير إلى حد ما باختلاف المكان فإنها تتغير كذلك بتغير الزمان. فلو نظرنا إلى اللهجات العربية السائدة اليوم في مصر ومكة والمدينة وبلاد الشام وغيرها لوجدنا أنها تقضي على قواعد الصرف والنحو بأسرها، ومن الممكن أن تكون مثل هذه اللهجات موجودة من قبل أيضًا في زمن من الأزمان....

والحق أن لسان العرب – الذي هو المفتاح الحقيقي للصرف والنحو– هو محيط لا شاطئ له، ويصدُقُ عليه تمامًا ما قاله الإمام الشافعي رحمة الله عليه في مقولته الشهيرة: "لا يعلمه إلا نبي".. أي من المستحيل لأي إنسان أن يحيط بتلك اللغة على شتى لهجاتها وأساليبها بشكل كامل إلا نبي.

إذن فهذه المقولة أيضًا تؤكّد أنه ليس بوسع كل من هبَّ ودبَّ أن يمتلك ناصية هذه اللغة من كافة النواحي، بل الإحاطة الكاملة بها إنما هي من معجزات الأنبياء عليهم السلام." [ϑ]

كما يقول حضرته عليه السلام:

"أيها الأغبياء، لو كان بإمكان الإنسان تأليف كتب علمية دينية مليئة بآلاف المعارف والحقائق بمجرد سرقة عبارات من الروايات الخيالية، فما الذي منعكم من اللجوء إلى هذا الأمر طوال هذه الفترة؟ ألا تجدون مثل هذه الكتب في الأسواق حتى تسرقوا الجُمل منها؟ لماذا لزمتم الصمت على اللعنات التي دعونا بها عليكم في حالة عدم قبولكم التحدي؟ ولماذا فقدتم القدرة على كتابة التفسير بلغة عربية فصيحة بليغة ولو لسورة واحدة، حتى تطّلع الدنيا على مبلغ علمكم بالعربية. لو كانت نيتكم حسنة لجلستم حذائي في أحد المجالس لكتابة التفسير، لكي يسودّ في الحال وجهُ الكاذب العديم الحياء. ولكن، لا بأس، فليست كل الدنيا بعمياء، بل لا يزال فيها أولو الألباب.

لقد أعلنّا مرارًا وتكرارًا أن تعالَوا نبارزْ في مجال تأليف كتيب بالعربية، ثم نحتكم إلى علماء العربية، فلو ثبت أن كتيبكم هو الأفصح والأبلغ فإن دعواي ستُعتبر باطلةً تمامًا. وها إني أقرّ وأعترف الآن أيضًا أنكم لو نازلتموني في ميدان كتابة التفسير بالعربية، ثم ثبت أن تفسيركم هو الأفضل والأعلى لفظًا ومعنًى، فسوف أعطيكم خمس

[ϑ] نزول المسيح، الخزائن الروحانية مجلد ١٨ ص ٤٣٦- ٤٣٧.

روبيات على كل غلطة تعثرون عليها في تفسيري. فالأولى بكم – قبل أن تطيلوا عليّ ألسنتكم بالمطاعن السخيفة هكذا – أن تُثبتوا علوَّ كعبكم في العربية بكتابة التفسير العربي. ذلك أن الذي لا يكون ضليعًا بفن من الفنون فإن طعنه على رجالات ذلك الفن لا يستحق الاعتبار أبدًا ...

ويعرف الأدباء أن ورود بضع جُمل مقتبَسة في كتاب يحوي آلاف الجمل والفقرات لا يقدح في قوته البلاغية أبدًا، بل إن مثل هذا الاقتباس يزيده قوةً وبلاغة. انظروا إلى التوارد المتواجد في شطر بيت واحد لدى اثنين من أصحاب المعلقات السبع:

حيث يقول أحدهما: يقولون لا تَهلَــكْ أسًى وتَجمَّلِ

بينما يقول الآخــر: يقولون لا تَهلَــكْ أسًى وتَجلَّدِ

فبالله، أخبِروني الآن أيهما سارق.

إن الجاهل لو سُمح له أن يكتب ولو بسرقة من كلام الآخرين فلن يقدر على كتابة شيء، لأنه محروم أصلاً من المقدرة الأساسية. أما الموهوب القادر على الكتابة المسترسلة دون أية صعوبة إذا كتب المواضيع العلمية الحكيمة المتضمنة على شتى المعارف والحقائق دونما عائق وفي عبارة بليغة مليحة، وإنْ اقتبس في كلامه وفي المحل المناسب آلافَ الجمل مما ورد في كتب الآخرين، فلا بد من اعتبار كلامه أمرًا معجزًا دونما شك." [9]

[9] نزول المسيح، الخزائن الروحانية مجلد ١٨ ص ٤٤٠-٤٤٣

ويقول سيدنا أحمد عليه السلام ما تعربيه:

"إن معظم العائبين المستعجلين، وبالأخص الشيخ محمد حسين البطالوي، الذين لا يتصفحون كُتبنا العربية إلا بحثًا عن الأخطاء فيها، يعُدّون – بسبب ظلمة التعصب فيهم – سهوَ الناسخ أيضًا ضمن قائمة الأغلاط. ولكن الحق أنه لا يمكن أن يُعزى إلينا من الأغلاط الصرفية والنحوية إلا ما لم يرِد صحيحُه في موضع آخر من كتبنا. أما إذا وردت كلمة أو تعبير ما في مكان ما خطأً على طريق الصدفة بينما تكون تلك الكلمة نفسها قد وردت في عشرات الأماكن الأخرى بصورتها الصحيحة.. فلا مناص لهم – لو كان فيهم شيء من الإيمان والإنصاف – إلا أن يعزوا ذلك الخطأ إلى سهو الناسخ بدلاً من أن يعتبروه غلطًا منا. ولو أنهم أخذوا بعين الاعتبار العجلةَ التي ألّفنا فيها هذه الكتب لاعترفوا باقترافهم ظلمًا عظيمًا، ولعدُّوها تأليفاتٍ خارقةً للعادة.

الحق إن القرآن الكريم وحده منـــزَّهٌ من السهو والخطأ، وأما البشر فلم يسلم كلام أحد منهم من هذا العيب، حتى إن السيد البطالوي نفسه يعترف بأن الناس استخرجوا أغلاطًا حتى من شعر امرئ القيس وكلام الحريري. فهل يمكن لهذا الذي عثر صدفةً على خطأٍ للحريري أو امرئ القيس أن يُعَدَّ بمكانتهما؟" [9]

(نقلاً عن الطبعة المعروفة بـــ "الخزائن الروحانية"
مجلد ٧ المقدمة ص ٧-٢٢ عام ١٩٥٩م
مع شيء من التصرف لدى الترجمة)

---

[9] سرُّ الخلافة.. صفحة الغلاف الداخلية، الخزائن الروحانية مجلد ٨ ص ٣١٦